الرجـــال يمرون من هنا ...

قصة بقلم : فخري قعوار

(الـى رجال المقاومة الفلسطينية عام ١٩٣٦)

اما وان تنتهي امال رائد كلها ، ويتبدد حلمه المزركش الجميـــل هكذا مرة واحدة ، ويصبح كل كلامه المزوق الانيق لشريفة عن المستقبل مجرد كلام ، ويعود الى البيت يجر وراءه ذيلا طويلا من الفشل ليلوك الجوع والفراغ والتثاؤب ، فجأة وبلا تمهيد ، فهذا ما كان يتوقعه بين يوم واخر ، لا بل وينتظره ، وكان حدوثه امرا مفروغا منه ، ولكن الذي كاد يطير مخه من رأسه ، ويحدث هزة عنيفة في مفاصله ، هو ان كـل شيء انتهى لسبب تافه كالبصقة .

ورائد ، كان يحلم ، ككل ابناء جيله الذين لم يتجاوزوا العشرين عاما ، يحلم بالوظيفة والراتب والمستقبل ، ورغم انـــه يحمل شهـادة السابع الابتدائي (وهي كفيلة بان تجعل منه موظفا محترما) فقد رأى كل اماله وكأنها سراب يصعب عليه ان يقبضه . عندما كان فـــي الثانية عشرة ، كان يحلم بالوظيفة في مكتب بريد القرية ، وبالبذلة الزرقـاء الغامقة ذات الساقين الطويلتين في الشتاء والقصيرتين في الصيف ، والبصطار الاسود المتوهج ، والازرار الصفراء اللامعـة على طول فتحة الجاكتة (بالاضافة الى اللباس الانيق المميز) بالسبع ساعات مـــن الدوام ، والعطلة الاسبوعية ، والثلاث جنيهات والنصف التي يتقاضاها كل شهر ، والمركز المرموق بيـن الناس ، والمستقبل الدافيء مع شريفة، والنظام الانجليزي الدقيق في الترفيع وزيادة الراتب .

ولم يعجبه ان يظل يحلم ، فكل ما حوله يحفزه للكف عن العبث ، ويفعل شيئا ، فأمه مثنية على نفسها حزنا وشقاء ، وابوه صار قطعة من الجبل .. ملتقى الثوار ، وشريفة .. لقد برز الرمان في صدرها ، فلم تعد تلعب (الحبلة) مع بنات واولاد القرية في الحارات ، ولم تعـد تحمل العجنة الى المخبز ، ولم تعد تظهر الا مع امها او ابيها او احـد افراد عائلتها المقربين ، وصار كل ما يؤكد انها ما تزال تحبه ، تلـك البسمة الرائعة الصافية كالماء المقطر ، وهذا يعني ان حبهما اصبح ذا صبغة جدية ليس للخيال مكان فيها . امه بحاجة للمصروف ، وهـو بحاجة له ، وابوه لن يمانع ايضا في اخذ ما تيسر ، ولكي يخرج شريفة من وراء القضبان التي زرعها اهلها من حولها ، لا بد لـــه ان يتقاضى راتبا من عمل ما .

ومكتب البريد ، كان اول مكان خطر له ، والعمل فيه لا يتم بسهولة بالفة كشرب كوب ماء مثلا ، وانما على العكس ، فلكي يكون موظفا لـــه قيمته ، يجلس ببهاء وحيوية خلف الطاولة الممتدة على طول القاعـــة ، لا بد من اجتياز اختبارات اقسى من شرب زجاجة زيت خروع مـــن الحجم الكبير .

وما ان مر هذا بخاطره ، حتى كتب لشريفة كل شيء وبالتفصيل . قال لها عن حلمه الممتد الى الوراء عبـــر السنين بالبذلة الزرقـاء والبصطار والكاسكيت ، وعن نيته للتقدم فعلا لطلب العمل ، ولكنـــه يؤجله لحين مجيء والده من الجبل . وقال لها كلاما حلوا مطـــرزا بالورد والعطور عن المستقبل ، وافاض في وصف اشواقه وحبه لهـا ، وفي نقمته على اهلها الذين يحتجزونها كالعصفورة الدورية المفـــردة داخل قفص من الفولاذ . (ولم يكن تسليم الرسالة مشكلة عويصة ، فقد اعطاها لشقيقها الصغير ، واوصاه ان يكتم الامر جيدا ، لانه اذا لـــم يفعل ذلك فأن الفولة ستأكله) ...

وعندما جاء والده ذهب معه الى مكتب البريد ، بعد ان كتب طلبا بصيغة جميلة ، وحلق ذقنه ، وحاول ان يكون نظيفا وانيقـــا بالقـدر الذي تسمح به ملابسه التي ارتخت خيوط نسيجها من كثرة الاستعمال. ولم يكن رائد يخشى مقابلة المدير وحده ، وانما فضل اصطحاب ابيه، لكي يتخذ الموضوع طابعا اكثر جزما وميلا الى الانجاز والرد السريع .

كان المدير يرتدي نفس لباس الموظفين ، ولكن شرائط مغموسة بماء الذهب ملتفة حول كمي جاكتته هي التي تميز رتبته ، وهو كبير الرأس ذو صلعة مصقولة بلا مسامات ، حليق الشاربين ، يضع نظارة طبيـــة على عينيه ، وله في اسفل ذقنه لغد متدفق فوق باقة الجاكتة المقفلـة عند العنق ، كما لا يتجاوز الخمسة والاربعين عاما بأي حـــال . ودار الحديث بين ابيه والمدير ، ورائد ينصت بأذنيه وقلبه وخلاياه لكـــل كلمة ، بل لكل حرف وكل نحنحة . ويتأمل بعينيه وعقله كـل حركة او اشارة او التفاتة . صوت المدير دقيق كرأس ابرة ، وينساب كمـــواء القطط ، وصوت ابيه مدبب كالصخر وينطلق من فمه بخشونة وسخونة كمدفع سريع الطلقات . ولكن عندما قال المدير ان هناك من قدم طلبـا للعمل قبل رائد ، خفت صوته وتضاءل ، وسقطت مرارة مفاجئة علـــى قلب رائد كسقوط الحامض المركز على نتفة من القطن الرقيق الناعم . وطفق والده يحاول اقناع المدير بحاجة ابنه للعمل ، وانه فقير .. و.. و .. ، ولكن لم تبد على وجه الرجل وكلامه ذرة واحدة من اقتناع ، لان هذا سيغضب المسؤولين (هكذا قال بالحرف الواحد) ، مما اضطـره للجوء الى الرجاء كمحاولة قد تجدي ، فمال صوته الخشن الساخـن الهادر الى الرقة والضراعة ، ثم تحول الرجاء الى استجداء وتوسل ، وبدا التأثر واضحا على المدير ، فانكمش الجلد في جبينه على شكل قنوات متلاصقة ونظر في راحتي يديه ، ثـــم انتقل بعينيه بين رائـــد وابيه ، واستقرت برهة على سقف الغرفة ، واخرج منديله من جيبـه وتمخط ، واشعل سيجارة ، ثم وافق !

وفي اليوم التالي كان رائد يؤدي اختبـــار المعلومات العامة ، وقلبه يرقص نشوة وسرورا ، وشعور بالخدر اللذيذ يمتزج مـع كريات دمه الحمراء ، تماما كخدر السيجارة الاولى (وقد ابتلع دخان سيجارة ذات مرة) ، . .ولم ير في الاسئلة صعوبة تذكر لا فـــي التاريخ ولا الحساب ولا الجغرافية ولا اللغة الانجليزية . وقبل ان يغادر غرفـــة الامتحان عرف انه ناجح ، ولم يبق سوى الكشف الطبي .

وهو لم يشك من علة في حياته قط ، وجسمه قوي ، وعضلاتـــه ليست مفتولة ولكنها صلبة نوعا ما ، ولا يذكر انه سخن او لازم الفراش كالمرضى ، وكل ما يذكره انه اصيب بالحصبة وهو صغير ، وبالزكام عدة مرات ، وبعد ان اتم الطبيب كشفه ، قال وهو يهز رأسه انه بحاجـــة لنظارة طبية لان عينه اليسرى ضعيفة . ومع ان ضعف عينه او عدمه لا يقدم ولا يؤخر شيئا بالنسبة للعمل ، الا ان ثمن النظارة والحصول عليها خلال يومين امر قد يؤخر ويعرقل كل شيء .

كان يعرف جيدا ان امه لا تملك قرشا واحدا ، فارسلها تقترض جنيها من احدى الجارات ، ولما عادت بدونه ، فكر ان يبيع شيئا من « اثاث » البيت . فوجد ان ليس فيه قطعة (قطعة واحدة منفصلة) تساوي جنيها ، لذا ، فكر ببيع قطعتين او ثلاثا او اكثر ، كبابور الكاز وابريق الشاي والملاعق والسكينة مثلا ، ولكنه امتعض عندما تصور ان المشتري لن يكون احدا من غير اهل القرية ، وبما انه يعرفهم ويعرفونه ، فمن العيب ان يعرض لوازم البيت ليبيعها لهم ، بل هم انفسهم لن يقبلوا الشراء منه اذا ما تمادى وفعلها . وخطر له ان يذهب الى يافا ويبيعها هناك ، الا انه افحم الخاطر واسكته حينما خمن مصاريف السفر . وتمنى في تلك اللحظة ان تعرف شريفة مشكلته ، لربما ادركته بالجنيه وانتهت الامور بسلام ، لكنه ليست لديه القابلية لان يطلبه منها ، واحس بصداع حارق يتمدد داخل رأسه ، ويوشك ان يحيل عظام جمجمته الى نتف متناثرة ، وكتم غيظه وضيقه وصمت .

ومرت عدة ايام وهو يفكر بصمت ، لاول مرة يفكر بهذا الهدوء الحانق . ما معنى انه لا يملك جنيها ؟ بل ما معنى ان الجارات كلهن لا يملكن جنيها ؟ وما معنى ان اباه في الجبل مع الثوار ؟ ولاول مرة يجد نفسه امام عالم سحري غريب كان غافلا عنه . واجتاحته قشعريرة رقيقة كالحلم . وروى الحكاية لابيه ، فابدى اسفا عميقا ، وتأفف ولعن ثم تسمرت عيناه في الجبل . ولملم رائد اطراف شجاعته وقال له:

ـ ابي .. اريد ان اذهب معك ...

كان يريد ان يشرح له رغبته بوضوح ، ولكن صلابة وجه ابيه (بشاربيه اللذين تقف شعراتهما كالرصاص ، وانفه الشامخ المتحدي ، وعينيه البارزتين كعيني نسر) جعلته يختار اقل عدد من الكلمات .

وظلت عينا ابيه تنتقلان بمرونة زيتية بينه وبين الجبل ، ورأى دمعتين امتدتا على طول جفنيه السفليين ، فاغمض عينيه برهة (ربما ليمنع الدمعتين من السقوط) شعر رائد خلالها برهبة غارت في قاع صدره ونخرت في عظامه . وعندما فتح عينيه ، قال بصوت ثابت كالجبل :

ـ ما زلت صغيرا ، والعمل مع الثوار يتطلب صبرا لا يعرفه الا الرجال .

ولانه يعرف كل كلمة يقولها ابوه ، فقد آثر الصمت ، وانسحب بعد لحظة واحدة ، وحرص ان لا يراه احد وهو يدس رغيف خبز تحت حزام بنطلونه ، ويسار نحو الطريق الترابية المؤدية الى الجبل . وعندما وصل شجرة البلوط الواقفة على طرف الطريق ، توقف ، وثبت الرغيف جيدا تحت حزامه ، ثم تسلق الشجرة . كان منظر القرية كابيا حزينا مع الغروب ، والحلة الفامقة التي تخلفها الشمس بعد مغيبها تخفي البيوت المبنية من الطين ، وتهزم اسراب الذباب ، وتدب النعاس في اجفان الاطفال ذوي العيون الغائرة والانوف التي يسيل مخاطها دائما . ولم يدر لم تذكر شريفة في تلك اللحظة (ربما بسبب شجرة البلوط نفسها التي كان اولاد وبنات القرية يلعبون تحتها احيانا) ، ولم يدر ايضا لم تذكر البذلة الزرقاء والكاسكيت والبصطار ، وانزلقت من فمه بصقة لامست ورقة من الشجرة ثم استقرت على الارض . ونظر الى الطريق وقال لنفسه : « من هنا يمر الرجال » . ولفتت انتباهه كتلة بشرية سوداء تفذ في السير نحو الجبل ، فهبط الى الطريق برفق ، وشد يده على الرغيف ، وسار خلف ابيه على رؤوس اصابعه .

(الزرقاء) الاردن

فخري قعوار

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها
في كل مكان

أولاد حارتنا

* **أجرأ وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة .**
* **الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...**
* **تنشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة**

الثمن ٧٥٠ ف. ل.